تفسير سورةُ الحج
من آية (55) إلى آية (69)
اللقاء الثامن

المعنى الإجمالي من آية (42) إلى آية (54):

يقولُ تعالى: وإنْ يكَذِّبْك قَومُك -يا مُحَمَّدُ- فقد كَذَّب مِن قَبلِهم قَومُ نُوحٍ، وعادٌ، وثمودُ، وقَومُ إبراهيمَ، وقَومُ لُوطٍ، وأصحابُ «مَدْينَ» الذين كذَّبوا شُعَيبًا، وكذَّب فِرعَونُ وقَومُه موسى، فأمهَلْتُ هؤلاء الكافرينَ ثمَّ أخَذْتُهم بالعَذابِ، فكيف كانت مُعاقَبتي لهم؟

فكثيرٌ مِن القُرى الظَّالِمةِ بكُفرِها أهلَكْنا أهلَها؛ فديارُهم مُهَدَّمةٌ خَلَتْ مِن سُكَّانِها، وآبارُها مُعطَّلةٌ لا يُستَقى منها، وقُصورُها العاليةُ المزَخرفةُ خَلَت مِن سُكَّانِها ولم تدفَعْ عن أهلِها سُوءَ العَذابِ!.

يقولُ تعالى ذِكرُه: أفلم يَسِرِ المكَذِّبونَ مِن قُرَيشٍ في الأرضِ؛ لِيُشاهِدوا آثارَ المهلَكِينَ، فتكونَ لهم قلوبٌ واعِيةٌ يَعقِلونَ بها فيتفَكَّرون ويَعتَبِرون، أو تكونَ لهم آذانٌ يَسمَعون بها سَماعَ تدبُّرٍ فيتَّعِظونَ؟! فإنَّ العمى ليس عَمى البَصَرِ، وإنَّما العَمى المهْلِكُ لصاحبِه هو عَمى البَصيرةِ عن إدراكِ الحَقِّ والاعتِبارِ.

ويَستَعجِلُك -يا مُحَمَّدُ- كفَّارُ قُرَيشٍ بالعَذابِ الذي أنذَرْتَهم به جَزاءَ كُفرِهم، ولن يُخلِفَ اللهُ ما وعَدَهم به مِنَ العَذابِ، فلا بدَّ مِن وُقوعِه، وإنَّ يَومًا عِندَ اللهِ كمِقدارِ ألْفِ سَنةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ مِن سِنِين الدُّنيا.

وكثيرٌ مِن القُرى كانت ظالِمةً بإصرارِ أهلِها على الكُفرِ، فأمهَلْتُهم ولم أعاجِلْهم بالعُقوبةِ فاغتَرُّوا، ثمَّ أخَذْتُهم بعَذابي في الدُّنيا، وإليَّ مَرجِعُهم بعدَ هَلاكِهم، فأُعَذِّبُهم بما يَستَحِقُّونَ.

يقولُ تعالى: قُلْ -يا مُحَمَّدُ: يا أيُّها النَّاسُ، إنَّما أنا مُنذِرٌ لكم واضِحُ النِّذارةِ، فالذينَ آمَنوا باللهِ ورَسولِه، وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالِحةَ؛ لهم عِندَ اللهِ مَغفِرةٌ لذُنوبِهم، ورِزقٌ حَسَنٌ، والذينَ سَعَوا في الكَيدِ لإبطالِ آياتِ القُرآنِ مُعانِدينَ، ظانِّينَ أنَّهم يُعجِزونَ اللهَ، أولئك هم أهلُ النَّارِ.

يقولُ تعالى: وما أرسَلْنا مِن قَبْلِك -يا مُحَمَّدُ - مِن رَسولٍ ولا نَبِيٍّ إلَّا إذا قرأ وتلا ألقَى الشَّيطانُ في قِراءَتِه الشُّبَهَ والوَساوسَ؛ لِيَصُدَّ النَّاسَ عن اتِّباعِ ما يَقرَؤُه ويَتلُوه، لكِنَّ اللهَ يُبطِلُ كَيدَ الشَّيطانِ، فيُزيلُ وَساوِسَه، ويُثبتُ آياتِه الواضِحاتِ في مَبانيها ومَعانيها، واللهُ عَليمٌ حَكيمٌ.

وهذا الفِعلُ مِنَ الشَّيطانِ جعَلَه اللهُ فتنةً للذينَ في قُلوبِهم شَكٌّ ونِفاقٌ، ولِقُساةِ القُلوبِ مِن المشرِكينَ الذين لا يُؤثِّرُ فيهم زَجرٌ، وإنَّ الظَّالِمينَ مِن هؤلاء وأولئكَ في عداوةٍ شَديدةٍ لله ورَسولِه، وخِلافٍ للحَقِّ بَعيدٍ عن الصَّوابِ؛ ولِيَعلَمَ أهلُ العِلمِ الذين يُفَرِّقونَ بعِلمِهم بين الحَقِّ والباطلِ أنَّ القُرآنَ الكريمَ هو الحَقُّ

النَّازِلُ مِن عندِ اللهِ عليك، لا شُبهةَ فيه، ولا سَبيلَ للشَّيطانِ إليه، فيَزدادَ به إيمانُهم، وتَخضَعَ له قلوبُهم، وإنَّ اللهَ لهادي الذين آمَنوا به وبرَسولِه إلى طَريقِ الحَقِّ الواضِحِ، وهو الإسلامُ، يُنقِذُهم به من الضَّلالِ.

يقول ابن القيم –رحمه الله–: "وقد قسم الصحابة –رضي الله تعالى عنهم– القلوب إلى أربعة، كما صح عن حذيفة بن اليمان –رضي الله تعالى عنه–: القلوب أربعة: قلب أجرد فيه سراج يُزهر، فذلك قلب المؤمن، وقلب أغلف، فذلك قلب الكافر، وقلب منكوس، فذلك قلب المنافق، عرف ثم أنكر، وأبصر ثم عمي، وقلب تمده مادتان: مادة إيمان ومادة نفاق، وهو لما غلب عليه منهما".

أَعُوذُ بِاللَّهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ

﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ ﴿55﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها: قال الرازي: لَمَّا بيَّن اللهُ سُبحانَه حالَ الكافِرِينَ أوَّلًا، ثمَّ حالَ المؤمنين ثانيًا، عاد إلى شرْحِ حالِ الكافرينَ مرَّةً أخرى

(وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ) أي: ولا يَزالُ الذين كَفَروا في شَكٍّ وريبٍ مِنَ القُرآنِ؛ لإعراضِهم وعنادِهم. موسوعة التفسير

(حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ) أي: هم مُستَمِرُّونَ على تلك الحالِ إلى أن يأتيَهم يومُ القيامةِ فَجأةً، أو يأتيَهم عذابُ يَومٍ عقيمٍ. موسوعة التفسير

قال البغوي: في قوله تعالى: ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾، يعني: يوم الْقِيَامَةِ. وَقِيلَ: الْمَوْتُ، ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾، قَالَ الضَّحَّاكُ وَعِكْرِمَةُ: عَذَابُ يَوْمٍ لَا لَيْلَةَ لَهُ وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ. وَالْأَكْثَرُونَ عَلَى أَنَّ الْيَوْمَ الْعَقِيمَ يَوْمُ بَدْرٍ لِأَنَّهُ ذَكَرَ السَّاعَةَ مِنْ قَبْلُ وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ. وَسُمِّيَ يَوْمَ بَدْرٍ عَقِيمًا لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ لِلْكُفَّارِ خَيْرٌ.

(أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ) قال السعدي: أي: لا خير فيه، وهو يوم القيامة، فإذا جاءتهم الساعة، أو أتاهم ذلك اليوم، علم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين، وندموا حيث لا ينفعهم الندم، وأبلسوا وأيسوا من كل خير، وودوا لو آمنوا بالرسول واتخذوا معه سبيلا، ففي هذا تحذيرهم من إقامتهم على مريتهم وفريتهم.

قال ابن عطية: سُمِّيَ يَومُ القيامةِ عَقيمًا؛ لأنَّه لا ليلةَ بعدَه ولا يومَ، والأيَّامُ كأنَّها نتائجُ؛ لمجيءِ واحدٍ إثرَ واحدٍ، فكأنَّ آخِرَ يَومٍ قد عُقِمَ.

﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ ﴿56﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها: قال المراغي: بعدَ أن بيَّن سبحانَه حالَ الفريقينِ في الدُّنيا؛ أرشَد إلى حالِهم في الآخرةِ

(الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ) أي: السُّلطانُ يومَ القيامةِ للهِ وَحْدَه، لا مُنازِعَ له فيه، يَحكُمُ فيه بالعَدلِ بينَ عِبادِه المؤمِنينَ والكافرينَ. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: (مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ) [الفاتحة: 4].

وقال سُبحانَه: (الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ) [الفرقان: 26].

وقال عزَّ وجلَّ: (لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ) [غافر: 16].

(فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ) أي: فالذين آمَنوا باللهِ ورَسولِه وما جاء به مِن عندِ اللهِ تعالى، وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالِحةَ؛ يكونونَ يَومَ القيامةِ في جنَّاتِ النَّعيمِ، يَتنَعَّمونَ فيها بأرواحِهم وأبدانِهم. موسوعة التفسير

قال ابن عثيمين: والعملُ الصالحُ مبنيٌّ على الإيمانِ، فعملٌ بلا إيمانٍ لا فائدةَ منه، فالمنافقون يَعملون، ويَذْكرون الله، ويُصَلُّون، ويتصدَّقون، ولكن ليس عندَهم إيمانٌ؛ فلا ينفعُهم، ولهذا يقدِّمُ الله عزَّ وجلَّ الإيمانَ على العملِ الصالحِ.

قال ابن عثيمين: الإيمانُ وحْدَه لا يكفي، بل لا بدَّ مِن عملٍ، والعملُ وحْدَه لا يكفي، بل لا بدَّ مِن إيمانٍ، فلا يستحقُّ الجنةَ إلَّا مَن جمَع بينَ الإيمانِ والعملِ الصالحِ؛ قال تعالى: فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ، وإذا ذُكِر ثوابُ الجنةِ مقيَّدًا أو معلَّقًا بالإيمانِ وحْدَه، فالمرادُ بذلك الإيمانُ المتضمِّنُ للعملِ الصالحِ.

العملُ لا ينفعُ صاحبَه إلَّا إذا كان صالحًا؛ قال تعالى: وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، والعملُ الصالحُ هو: الخالصُ الصوابُ؛ أي: ما ابتُغِي به وجهُ الله، وكان على شريعةِ الله.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ ﴿57﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها: قال ابن عثيمين: لَمَّا ذكَرَ عزَّ وجلَّ أهلَ الإيمانِ وثوابَهم، ذكَرَ أصحابَ الشِّمالِ بعد ذلك، فقال: وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ؛ لأنَّ القُرآنَ مَثانٍ، تُثَنَّى فيه الأمورُ والمعاني؛ ولهذا تجِدُ القُرآنَ الكريمَ في الغالبِ إذا ذكَرَ اللهُ الجنَّةَ ذكَرَ النَّارَ، وإذا ذكَرَ أولياءَ اللهِ ذكَرَ أعداءَ الله، والحِكمةُ مِن ذلك ألَّا يَمَلَّ الإنسانُ؛ لأنَّه كُلَّما تَنقَّلَ المعنى إلى معنًى آخَرَ نَشِطَ الإنسانُ، وحِكمةٌ أُخرى: أن يكونَ الإنسانُ سائرًا إلى الله، أي: مُتعَبِّدًا إلى الله بين الخَوفِ والرَّجاءِ؛ لأنَّه إذا مَرَّت به صفاتُ المؤمنينَ قَوِيَ جانبُ الرَّجاءِ، وإذا ذُكِرَت أحوالُ الكافِرينَ غَلَب جانبُ الخَوفِ

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ) أي: والذينَ كَفَروا باللهِ ورَسولِه وكذَّبوا بآياتِ القُرآنِ، فأولئك لهم يَومَ القيامةِ عَذابٌ مُخْزٍ ومُذِلٌّ في النَّارِ؛ جزاءً لهم على استِكبارِهم عن الحَقِّ، واستِهانتِهم بآياتِ اللهِ ورُسُلِه. موسوعة التفسير

وقال السعدي: (وَالَّذِينَ كَفَرُوا باللهِ ورُسُلِه وَكَذَّبُوا بآياتِه الهادية للحَقِّ والصَّوابِ، فأعرَضوا عنها، أو عاندوها).

كما قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ) [غافر: 60].

لَقَدْ كَتَبَ اللهُ – تَعَالى – عَلَى كُلِّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ أَن يُقَادَ إِلَيهِ وَيُرجَعَ، فَيُلاقِيَهُ إِمَّا مُؤمِنًا عَزِيزًا كَرِيمًا بما أَسلَفَ مِنَ الصَّالحَاتِ، وَإِمَّا ذَلِيلاً مُهَانًا بما اقتَرَفَ مِن سَيِّئَاتٍ: (إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى * وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى) [طه:74-75]

جَاءَ جِبرِيلُ إِلى النَّبِيِّ –صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ– فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، عِشْ مَا شِئتَ فَإِنَّكَ مَيِّتٌ، وَاعمَلْ مَا شِئتَ فَإِنَّكَ مَجزِيٌّ بِهِ، وَأَحبِبْ مَن شِئتَ فَإِنَّكَ مُفَارِقُهُ " رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ وَحَسَّنَهُ الأَلبَانِيُّ.

إِنَّهُ يَومٌ مَشهُودٌ وَلِقَاءٌ مَوعُودٌ، بَعدَ لَحظَةٍ حَاسِمَةٍ قَاصِمَةٍ، تَنقُلُ أَحَدَنَا مِن دَارِ العُبُورِ وَالغُرُورِ، إِلى دَارِ السُّرُورِ أَوِ الشُّرُورِ.

لَحظَةٌ يُؤمِنُ فِيهَا المُلحِدُ وَالكَافِرُ، وَيُوقِنُ عِندَهَا الفَاسِقُ وَالفَاجِرُ، وَتَظهَرُ حَقَارَةُ الدُّنيَا وَقِصَرُهَا وَهَوَانُ أَمرِهَا، وَيُحِسُّ مُلاقِيهَا أَنَّهُ فَرَّطَ فِي جَنبِ اللهِ كَثِيرًا، فَيُنَادِي بِلِسَانِ النَّادِمِ المُتَحَسِّرِ: (رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ) [المؤمنون:99-100]، (رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ) [المنافقون:10].

يَخرُجُ العَبدُ مِن قَبرِهِ حَسِيرًا كَسِيرًا، لا ثَوبَ يُغَطِّيهِ، وَلا مَسكَنَ يُوَارِيهِ، حَافِيًا عَارِيًا، لا يَملِكُ قَلِيلاً وَلا كَثِيرًا، وَلا يَحمِلُ فَتِيلاً وَلا نَقِيرًا، إِنَّهُ يَومٌ يَجمَعُ اللهُ فِيهِ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ، فَتُنشَرُ الصُّحُفُ وَالدَّوَاوِينُ، وَتُنصَبُ المَوَازِينُ.

لَقَدِ انتَهَتِ الأَيَّامُ، وَتَبَدَّدَتِ الأَوهَامُ، وَضَاعَتِ الأَحلامُ، وَاجتَمَعَ الأَحبَابُ وَالخُصُومُ، وَسِيقَ الظَّالِمُ وَالمَظلُومُ، (يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ) [عبس:34-37].

فأَصحَابَ العُقُولِ الرَّاجِحَةِ، وَالقُلُوبِ الوَاعِيَةِ، يعمَلُوا لِيَومِ الحَسَابِ، وَلا يَغُرَّنَّهُم طُولُ الأَمَلِ فيحسنوا العَمَلَ، فَالموتُ يَأتِي بَغتَةً، وَمَلَكُ الموتِ يَأخُذُ عَلَى غِرَّةٍ، وما خلقنا سبحانه لنلعب بل لنعبد ونسجد ونقول سمعنا وأطعنا: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) [الذاريات:56].

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ ﴿58﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها: قال الرازي: لَمَّا ذَكَرَ اللهُ تعالى أنَّ المُلْكَ له يومَ القيامةِ، وأنَّه يَحكُمُ بينهم، ويُدخِلُ المؤمنينَ الجَنَّاتِ؛ أتبَعَه بذِكرِ وَعْدِه الكريمِ للمُهاجِرينَ، مُفرِدًا لهم بالذِّكرِ

(وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا) أي: والذين فارَقوا دِيارَهم وأهلِيهم؛ طلبًا لرِضا اللهِ وطاعَتِه، ثُمَّ قُتِلوا أو ماتوا دُونَ قَتلٍ؛ فإنَّ اللهَ سيُثيبُهم رِزقًا كَريمًا. موسوعة التفسير

وإنَّما سَوَّى بينَ مَن قُتِلَ في الجهادِ ومَن مات حَتْفَ أنْفِه في الوعْدِ؛ لاستوائِهما في القَصدِ وأصْلِ العمَلِ، وقد استدلَّ به فَضالةُ بنُ عبيدٍ الأنصاريُّ الصحابيُّ على أنَّ المقتولَ والميِّتَ في سبيلِ اللهِ سواءٌ في الفضلِ. الدرر السنية

قال السعدي: هذه بِشارةٌ كُبرى لِمن هاجَرَ في سَبيلِ اللهِ، فخرَجَ مِن دارِه ووَطنِه وأولادِه ومالِه؛ ابتغاءَ وَجهِ اللهِ، ونُصرةً لدينِ اللهِ، فهذا قد وجب أجرُه على اللهِ، سواءٌ مات على فِراشِه، أو قُتِلَ مُجاهِدًا في سَبيلِ اللهِ.

قال -ﷺ-: "من سألَ اللَّهَ الشَّهادةَ صادقًا بلَّغَه اللَّهُ منازلَ الشُّهداءِ وإن ماتَ علَى فراشِه" صحيح أبي داود

ومن أعظم أنواع الهجرة هجرة القلوب إلى الله تعالى بإخلاص العباده له في السر والعلانية، حتى لا يقصد المؤمن بقوله وعمله إلا وجه الله، ولا يحب إلا الله ومن يحبه الله، وكذلك الهجرة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم باتباعه وتقديم طاعته والعمل بما جاء به.

الهجرة نوعان: النوع الأول هجرة مكانية حسية ظاهرة وهي مرتبطة بالخروج والانتقال من أرض الكفر إلى أرض الإسلام ومن دار تشتد فيه الفتن إلى دار تقل فيه الفتن وهذا النوع من الهجرة مشروع.

والنوع الثاني من الهجرة هو هجر المعاصي والذنوب والآثام وكل ما نهى الله تعالى عنه، قال النبي -ﷺ-: «المسْلِمُ مَن سَلِمَ المسْلِمُونَ مِن لِسانِهِ ويَدِهِ، والمهاجِرُ مَن هَجَرَ ما نَهَى اللَّهُ عنْه» صحيح البخاري، أي ترك ما نهى الله عنه من الأعمال والأخلاق والأقوال والمآكل والمشارب المحرمة والنظر المحرم والسماع، كل هذه الأمور يجب هجرها والابتعاد عنها.

قال السعدي: (يحتملُ أنَّ المعنى أنَّ المهاجِرَ في سبيلِ الله قد تكَفَّلَ اللهُ برزقِه في الدُّنيا رِزقًا واسِعًا حَسَنًا، سواءٌ عَلِمَ الله منه أنَّه يموتُ على فِراشِه، أو يُقتَلُ شَهيدًا؛ فكُلُّهم مضمونٌ له الرِّزقُ، فلا يُتوَهَّمُ أنَّه إذا خرج مِن دِيارِه وأموالِه سيَفتَقِرُ ويحتاجُ؛ فإنَّ رازِقَه هو خيرُ الرَّازِقينَ، وقد وقع كما أخبَرَ؛ فإنَّ المهاجِرينَ السَّابِقينَ تَرَكوا دِيارَهم وأبناءَهم وأموالَهم؛ نُصرةً لدينِ اللهِ، فلم يَلبَثوا إلَّا يَسيرًا، حتى فتحَ اللهُ عليهم البلادَ، ومكَّنَهم مِنَ العبادِ، فاجتَبَوا مِن أموالِها ما كانوا به مِن أغنى النَّاسِ).

وقيل: الرزقُ الحَسَنُ يكونُ في الجنَّة.

كما قال تعالى: (وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ) [آل عمران: 169].

وقال سُبحانَه: (فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ) [آل عمران: 195]. وقال تبارك وتعالى: (وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ) [النساء: 100].

وعن سَلمانَ الفارسيِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: سَمِعتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((رِباطُ يَومٍ ولَيلةٍ خَيرٌ مِن صِيامِ شَهرٍ وقِيامِه، وإنْ مات جرى عليه عَمَلُه الذي كان يَعمَلُه، وأُجرِيَ عليه رِزقُه، وأَمِنَ الفَتَّانَ).

(وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ) أي: وإنَّ اللهَ لَهُو أفضَلُ مَن يَرزُقُ عِبادَه، ويُعطيهم مِن فَضْلِه. موسوعة التفسير

قال البقاعي: (لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ يَرزُقُ الخَلقَ عامَّةً؛ البَرَّ منهم والفاجِرَ، فكيف بمَن هاجَرَ إليه؟! ويُعطي عطاءً لا يَدخُلُه عَدٌّ، ولا يَحويه حَدٌّ).

قال النبي -ﷺ-: "إنَّكَ لن تدَعَ شيئًا اتِّقاءَ اللَّهِ، جَلَّ وعَزَّ، إلَّا أعطاكَ اللَّهُ خيرًا منهُ" رواه أحمد

قال ابن القيم رحمه الله:" وقولهم من ترك لله شيئا عوضه الله خيرا منه: حق، والعوض أنواع مختلفة؛ وأجلّ ما يعوض به: الأنس بالله ومحبته، وطمأنينة القلب به، وقوته ونشاطه وفرحه ورضاه عن ربه تعالى ."

قد يكون هذا العوض في الدنيا كما ذكر الشيخ السعدي عن المهاجرين وذكر ابن القيم لذلك مثال: " لما عقر سليمان بن داود عليهم السلام الخيل التي شغلته عن صلاة العصر، حتى غابت الشمس: سخر الله له الريح يسير على متنها حيث أراد.

وقد يكون هذا التعويض في الآخرة وقال السندي رحمه الله: " ذَرَّةٌ مِنَ الآخرة خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا".

قال النبي -ﷺ-: (مَنْ تَرَكَ اللِّبَاسِ تَوَاضُعًا لِلَّهِ، وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَيْهِ: دَعَاهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رُءُوسِ الْخَلاَئِقِ، حَتَّى يُخَيِّرَهُ مِنْ أَيِّ حُلَلِ الإِيمَانِ شَاءَ يَلْبَسُهَا). حسنه الألباني

وأهل التقوى والبصيرة لا يأبهون بالعوض الذي ينالونه في الدنيا، بل كل همّهم ومنتهى آمالهم أن ينالوا العوض في الآخرة، بل إنهم إذا أدركوا من ذلك شيئا في الدنيا، فإنهم يداخلهم الخوف والوجل، يخشون أن يكونوا ممن عجلت لهم طيباتهم في الدنيا.

﴿لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ ﴿59﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها: قال البقاعي: أنَّه لَمَّا كان الرِّزقُ لا يَتِمُّ إلَّا بحُسنِ الدَّارِ، وكان ذلك مِن أفضَلِ الرِّزقِ؛ قال دالًّا على خِتامِ التي قَبلُ

(لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ) أي: ليُدخِلَنَّ اللهُ المهاجِرينَ -الذين قُتِلوا أو ماتوا في سَبيلِه- الجَنَّةَ، فيَرضَونَ بذلك، ولا يَبغُونَ بها بَدَلًا؛ جزاءً لهم على خُروجِهم مِن ديارِهم وأوطانِهم في سَبيلِه. موسوعة التفسير

قال السعديُّ إلى أنَّ قولَه: لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ إمَّا ما يَفتَحُه اللهُ عليهم مِنَ البُلدانِ، خُصوصًا فَتحَ مَكَّةَ المشَرَّفةِ؛ فإنَّهم دَخَلوها في حالةِ الرِّضا والسُّرورِ، وإمَّا المرادُ به رِزقُ الآخرةِ، وأنَّ ذلك دُخولُ الجَنَّةِ، فتكونُ الآيةُ جَمَعت بينَ الرِّزقَينِ؛ رِزقِ الدُّنيا، ورِزقِ الآخرةِ، وذهب إلى أنَّ اللَّفظَ صالحٌ لذلك كُلِّه، وأنَّ المعنى صَحيحٌ، فلا مانِعَ مِن إرادةِ الجَميعِ.

(وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ) أي: وإنَّ اللهَ لَعليمٌ بكُلِّ شَيءٍ، ومِن ذلك عِلمُه بنِيَّةِ مَن يُهاجِرُ ويُجاهِدُ، حَليمٌ لا يُعاجِلُ بالعُقوبةِ مَن عصاه مِن خَلْقِه، بل يُواصِلُ لهم مِن رِزْقِه، ويَمنَحُهم مِن فَضْلِه. موسوعة التفسير

قال ابن عاشور: تَذييلٌ، أي: عليمٌ بما تَجشَّموهُ مِن المشاقِّ في شأْنِ هِجْرَتِهم مِن دِيارِهم وأَهْلِهم وأموالِهم، وهو حليمٌ بهم فيما لاقَوهُ، فهو يُجازِيهم بما لَقُوهُ مِن أجْلِه.

﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ ﴿60﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها: قال ابن حيان: لَمَّا ذَكَرَ اللهُ تعالى ثوابَ مَن هاجَرَ وقُتِلَ أو ماتَ في سَبيلِ اللهِ؛ أخبَرَ أنَّه لا يَدَعُ نُصرَتَهم في الدُّنيا على مَن بغَى عليهم

(ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ) أي: ذلك ومَن عاقَبَ مِن العِبادِ مَن اعتَدَى عليه بمِثلِ اعتِدائِه بالعَدلِ دُونَ زِيادةٍ، ثمَّ ظُلِمَ بالمعاوَدةِ إلى عُقوبتِه؛ فإنَّ اللهَ يَنصُرُه على مَن ظَلَمَه. موسوعة التفسير

(إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ) أي: إنَّ اللهَ كَثيرُ العَفوِ والغُفرانِ لعِبادِه المؤمِنينَ. موسوعة التفسير

قال السعدي: يَجوزُ لِمن جُنِيَ عليه وظُلِمَ مُقابلةُ الجاني بمِثْلِ جِنايتِه، فإنْ فَعَل ذلك فليس عليه سَبيلٌ، وليس بمَلومٍ، فإنْ بُغِيَ عليه بَعدَ هذا فإنَّ اللهَ يَنصُرُه؛ لأنَّه مَظلومٌ، فلا يَجوزُ أنْ يُبغَى عليه بسبَبِ أنَّه استَوْفَى حقَّه. وإذا كان المجازي غَيرَه بإساءتِه إذا ظُلِم بَعدَ ذلك نَصَرَه اللهُ، فالَّذي بالأصلِ لَمْ يُعاقِبْ أَحدًا إذا ظُلِم وجُنِيَ عليه؛ فالنَّصرُ إليه أَقرَبُ.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ ﴿61﴾

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ) أي: ذلك النَّصرُ المذكورُ كائِنٌ بسَبَبِ أنَّه سُبحانَه قادِرٌ لا يَعجِزُ عن نُصرةِ مَن شاء نُصرَتَه، ومِن علاماتِ قُدرتِه الباهِرةِ أنَّه يُدخِلُ اللَّيلَ في النَّهارِ، ويُدخِلُ النَّهارَ في اللَّيلِ، فيَزيدُ في أحَدِهما ما يَنقُصُه مِنَ الآخَرِ، وبالعَكسِ؛ فتارةً يَطولُ النَّهارُ ويَقصُرُ اللَّيلُ، وتارةً يكونُ بعَكسِ ذلك. موسوعة التفسير

قال ابن عاشور: والجَمْعُ بين ذِكْرِ إيلاجِ اللَّيلِ في النَّهارِ وإيلاجِ النَّهارِ في اللَّيلِ؛ للإشارةِ إلى تقلُّبِ أحوالِ الزَّمانِ؛ فقد يَصِيرُ المغلوبُ غالِبًا، ويَصيرُ ذلك الغالِبُ مَغلوبًا، مع ما فيه مِن التَّنبيهِ على تَمامِ القُدرةِ.

(وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ): وذلك أيضًا بسَبَبِ أنَّه سَميعٌ لِما يقولُ عِبادُه، بَصيرٌ بأحوالِهم وأعمالِهم، حافِظٌ لكُلِّ ذلك، ثمَّ يجازيهم جَميعًا على ما قالوا وما عَمِلوا. موسوعة التفسير

قال البِقاعي: (وَأَنَّ اللَّهَ بجَلالِه وعظَمتِه سَمِيعٌ لِما يُمكِن أنْ يُسمع، بَصِيرٌ أي: مُبصِرٌ عالِم لِما يُمكِنُ أنْ يُبصَر، دائمُ الاتِّصافِ بذلك، فهو غَيرُ مُحتاجٍ إلى سُكونِ اللَّيلِ ليَسمعَ، ولا لضياءِ النَّهارِ ليُبصِرَ... وهو لتَمامِ قُدرتِه وعِلمِه لا يَخافُ في عَفْوِه غائلةً، ولا يُمكِنُ أنْ يَفوتَه أمْرٌ).

مِن أسماءِ اللهِ تعالى (السَّميعُ البَصيرُ): يَسمَعُ كُلَّ شَيءٍ، ويرى كُلَّ شَيءٍ، لا يخفى عليه دَبيبُ النَّملةِ السَّوداءِ، على الصَّخرةِ الصَّمَّاءِ، في اللَّيلةِ الظَّلماءِ؛ إنْ جهَرْتَ بقَولِك سَمِعَه، وإن أسرَرْتَ به لصاحِبِك سَمِعَه، وإن أخفَيتَه في نَفْسِك سَمِعَه، وأبلَغُ من ذلك أنَّه يَعلَمُ ما تُوسوِسُ به نَفْسُك وإن لم تَنطِقْ به! وإذا آمَنَ الإنسانُ بهذه الصِّفةِ العَظيمةِ -صِفةِ السَّمعِ- فإنَّ إيمانَه بذلك يقتَضي ألَّا يُسمِعَ اللهَ تعالى ما يكونُ سَببًا لغَضَبِه على عَبدِه.

وهو سُبحانَه البَصيرُ: فإنْ فعَلْتَ فِعلًا ظاهِرًا رآك، وإن فعَلْتَ فِعلًا باطِنًا ولو في جَوفِ بَيتٍ مُظلمٍ رآك، وإن تحرَّكْتَ بجَميعِ بدَنِك رآك، وإن حرَّكْتَ عُضوًا مِن أعضائِك رآك، وأبلَغُ مِن ذلك أنَّه يَعلَمُ خائِنةَ الأعيُنِ وما تُخفي الصُّدُورُ! فإذا آمَنَ العَبدُ بذلك انبَعَث منه قُوَّةُ الحياءِ، فيَستَحِي مِن رَبِّه أن يرَاهُ على مَا يَكرَهُ، أو يَسمَعَ منه ما يَكرَهُ، أو يُخفيَ في سَريرتِه ما يَمقُتُه عليه؛ فتبقى حَرَكاتُه وأقوالُه وخواطِرُه مَوزونةً بميزانِ الشَّرعِ، غيرَ مُهمَلةٍ ولا مُرسَلةٍ تحت حُكمِ الطَّبيعةِ والهَوى. الدرر السنية

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ ﴿62﴾

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ): أي: ذلك الفِعلُ الذي فعَل -مِن إيلاجِ اللَّيلِ في النَّهارِ، وإيلاجِ النَّهارِ في اللَّيلِ-، واتِّصافُه سبحانَه بكمالِ القدرةِ وتمامِ العلمِ؛ بسَبَبِ أنَّ اللهَ هو الإلهُ الحَقُّ الثَّابِتُ الإلهيَّةِ، الذي يَستحِقُّ العِبادةَ وَحْدَه دونَ ما سِواه. موسوعة التفسير

قال القرطبيُّ: (قولُه تعالى: ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ أي: ذو الحقِّ، فدِينُه الحقُّ، وعِبادتُه حقٌّ. والمؤْمِنون يستحقُّون منه النَّصرَ بحُكمِ وعْدِه الحقِّ).

(وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ) أي: وأنَّ ما يَدْعوه المشرِكونَ مِن دُونِ اللهِ مِن الأصنامِ وغَيرِها: هو الباطلُ الذي لا يَنفَعُ ولا يَستَحِقُّ العِبادةَ. موسوعة التفسير

قال ابن تيميَّة: (الآلهةُ مَوجودةٌ، ولكِنْ عِبادتُها ودعاؤُها باطِلٌ لا ينفَعُ، والمقصودُ منها لا يَحصُلُ؛ فهو باطِلٌ، واعتِقادُ ألوهيَّتِها باطِلٌ، أي: غيرُ مُطابقٍ، واتِّصافُها بالإلهيَّةِ في أنفُسِها باطِلٌ لا بمعنى أنَّه معدومٌ).

(وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ): أي: وأنَّ اللهَ هو العالي على كُلِّ شَيءٍ بذاتِه وقَهرِه وقَدْرِه، الكبيرُ في ذاتِه وأسمائِه وصفاتِه، وكلُّ شَيءٍ دُونَه. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: (وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ) [البقرة: 255].

وقال سُبحانَه: (الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ) [الرعد: 9].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ ﴿63﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها: قال ابن حيان: لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى ما دَلَّ على قُدرتِه الباهرةِ مِن إيلاجِ اللَّيلِ في النَّهارِ والنَّهارِ في اللَّيلِ، وهما أمْرانِ مُشاهَدانِ: مجيءُ الظُّلمةِ والنُّورِ- ذكَرَ أيضًا ما هو مُشاهَدٌ مِن العالَمِ العُلويِّ والعالَمِ السُّفليِّ، وهو: نُزولُ المطَرِ، وإنباتُ الأرضِ. وإنزالُ المطَرِ واخضِرارُ الأرضِ مَرئيَّانِ.

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً): أي: ألمْ تَرَ أنَّ اللهَ أنزَلَ المطَرَ مِنَ السَّماءِ، فتَصيرُ به الأرضُ اليابِسةُ خَضراءَ بالنَّباتِ. موسوعة التفسير

قال السعدي: هذا حَثٌّ منه تعالى وترغيبٌ في النَّظَرِ إلى آياتِهِ الدَّالَّاتِ على وحدانيَّتِه.

قال ابنُ عاشور: (الخِطابُ لكُلِّ مَن تَصلُحُ منه الرؤيةُ؛ لأنَّ المرئيَّ مَشهورٌ).

وقال الشنقيطي: (الظَّاهرُ: أَنَّ تَرَ هنا مِنْ «رأى» بمعنى: «عَلِم»؛ لأنَّ إنزالَ المطرِ وإن كان مشاهَدًا بالبصرِ فكونُ اللَّهِ هو الَّذي أنْزلَه، إنَّما يُدرَكُ بالعلمِ لا بالبصرِ، فالرُّؤيةُ هنا علميَّةٌ على التَّحقيقِ).

كما قال تعالى: (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) [فصلت: 39].

(إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ): أي: إنَّ اللهَ لَطيفٌ في فِعلِ ما يشاءُ، ومِن ذلك إنباتُ الأرضِ بالماءِ، خَبيرٌ يَعلَمُ خَفايا كُلِّ شَيءٍ، ومن ذلك أنَّه لا تخفَى عليه الحَبَّةُ التي في باطِنِ الأرضِ، فيَسوقُ إليها الماءَ بلُطفِه لِيُنبِتَها به. موسوعة التفسير

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ ﴿64﴾

(لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ): أي: للهِ وَحْدَه مُلكُ جَميعِ ما في السَّمَوات ومُلكُ جَميعِ ما في الأرضِ مِنَ الخَلقِ؛ فكُلُّهم عَبيدُه، وتحتَ تَدبيرِه، لا شَريكَ له في ذلك. موسوعة التفسير

(وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ): أي: وإنَّ اللهَ لَهُو الغنيُّ عن كُلِّ ما سِواه، المحمودُ في أسمائِه وصِفاتِه وأفعالِه. موسوعة التفسير

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿65﴾

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ): أي: ألم تَرَ أنَّ اللهَ ذلَّل لكم جميعَ ما في الأرضِ، كالحَيَواناتِ والأشجارِ والأنهارِ، وسهَّل لكم أنواعَ الانتِفاعِ بها. موسوعة التفسير

(وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ): أي: وذلَّل لكم السُّفُنَ تجري في البِحارِ بقُدرتِه وتَيسيرِه، فتَحمِلُكم وتَحمِلُ بَضائِعَكم مِن مَوضِعٍ إلى آخَرَ. موسوعة التفسير

(وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ): أي: ويُمسِكُ اللهُ السَّماءَ بقُدرتِه؛ كيْ لا تَسقُطَ على الأرضِ فيَهلِكَ مَن فيها، إلَّا إذا أذِنَ اللهُ لها بالوُقوعِ، فتَقَعُ بإذنِه. موسوعة التفسير

قال ابن حيان: قولُه: إِلَّا بِإِذْنِهِ أي: يومَ القيامةِ، كأنَّ طَيَّ السَّماءِ بَعْضُ هذه الهيئةِ لوُقوعِها، ويجوزُ أنْ يكونَ ذلك وَعيدًا لهم في أنَّه إنْ أذِنَ في سُقوطِها كِسفًا عليكم سقَطَتْ.

كما قال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ) [فاطر: 41].

(إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ): أي: إنَّ اللهَ بالنَّاسِ لَذُو رأفةٍ ورَحمةٍ، ومِن رأفتِه ورَحمتِه بهم سَخَّر لهم جميعَ تلك الأشياءِ. موسوعة التفسير

﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ﴾ ﴿66﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها: قال المراغي: بعد أن ذَكَرَ سُبحانَه -فيما سلف- عظيمَ قدرتِه وبالِغَ حِكمتِه في ولوجِ اللَّيلِ في النَّهارِ والنَّهارِ في اللَّيلِ، ونبَّه بذلك على سابغِ نِعَمِه على عبادِه؛ أردَف ذلك بذِكرِ أنواعٍ أُخرى مِن الدَّلائِلِ على قدرتِه، فقال

(وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ): أي: واللهُ هو الذي أحياكم وأوجَدَكم مِنَ العَدَمِ، ثُمَّ يُميتُكم عندَ انقضاءِ آجالِكم، ثمَّ يُحييكم يومَ القيامةِ للحِسابِ والجَزاءِ. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: (قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ) [الجاثية: 26].

(إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ): أي: إنَّ الإنسانَ لَجَحودٌ لآياتِ اللهِ فلا يُؤمِنُ بها، جَحودٌ لنِعَمِ اللهِ فلا يَشكُرُ اللهَ عليها، ولا يُخلِصُ عِبادَتَه له وَحْدَه. موسوعة التفسير

﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ﴾ ﴿67﴾

(لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ): أي: لكلِّ جماعةٍ مُؤمِنةٍ مِمَّن قَبْلَكم وضَعْنا شريعةً، هم عاملونَ بها. موسوعة التفسير

(فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ): أي: فلا يُجادِلُنَّك -يا مُحمَّدُ- فيما شرَعَ اللهُ لك. موسوعة التفسير

قال الشوكاني: (والضَّميرُ راجعٌ إلى الأُممِ الباقيةِ آثارُهم، أي: قد عَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ شَرِيعَةً، ومِن جملةِ الأُممِ هذه الأمَّةُ المحَمَّديَّةُ، وذلك مُوجبٌ لعدمِ منازعةِ مَن بَقِي منهم لرسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم، ومُستلْزِمٌ لطاعَتِهم إيَّاه في أمرِ الدِّينِ).

كما قال تعالى: (فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ) [الروم: 60].

وقال سُبحانَه: (ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) [الجاثية: 18].

(وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ): أي: وادْعُ -يا مُحمَّدُ- إلى عبادةِ رَبِّك وَحْدَه، والإيمانِ به، واتِّباعِ شَريعَتِه. موسوعة التفسير

قال ابن عثيمين: الإنسانُ مأمورٌ بالدَّعوةِ إلى الخَيرِ -أي: الدَّعوةِ إلى الله عزَّ وجلَّ.

كما قال تعالى: (وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) [القصص: 87].

(إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ): أي: داوِمْ على هذه الدَّعوةِ ولا يَثنِيَنَّك عنها شَيءٌ؛ فإنَّك على طريقٍ مُستقيمٍ لا عِوَجَ فيه، مُوصِلٍ إلى المقصودِ. موسوعة التفسير

﴿وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿68﴾

(وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ): أي: وإنْ جادَلَك كُفَّارُ قَومِك -يا مُحَمَّدُ- فقُلْ لهم: اللهُ أعلَمُ بما تَعمَلونَه مِنَ الكُفرِ والتَّكذيبِ، وهو مُجازيكم على ذلك، ففَوِّضْ أمْرَهم إلى اللهِ، وأعرِضْ عنهم، ولا تُجادِلْهم. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: (وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ) [يونس: 41].

وقال سُبحانَه وتعالى: (هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ) [الأحقاف: 8].

﴿اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ ﴿69﴾

(اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ): أي: اللهُ يَقضي ويَفصِلُ بينكم يومَ القيامةِ فيما كُنتُم فيه تَختَلِفونَ مِن أمرِ دينِكم، ويتبَيَّنُ حِينَئذٍ المحِقُّ مِن المبطِلِ. موسوعة التفسير

كما قال الله تعالى: (فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ) [الشورى: 15].

قال القرطبي: في هذه الآيةِ أدَبٌ حَسَنٌ عَلَّمَه اللهُ عِبادَه في الرَّدِّ على مَن جادَلَ تعنُّتًا ومِراءً: ألَّا يُجابَ ولا يُناظَرَ، ويُدفَعَ بهذا القَولِ الذي عَلَّمَه اللهُ لنبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم.

(وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ) إن مِنْ أَجَلِّ صِفَاتِ نَبِيِّنَا أَنَّهُ دَاعٍ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى دَوماً وَأَبَدَاً قَالَ جَلَّ وَعَلا: (قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ) [الرعد: 36]، حتى وَهُوَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ يَجُودُ بِأَنفَاسِهِ الأخِيرَةِ يَقُولُ -ﷺ-: "الصَّلاَةَ، الصَّلاَةَ، وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ".

السَّعيُ إلى هِدَايَةِ الخَلقِ أنبَلُ وَظِيفَةٍ وَأَشْرَفُ عَمَلٍ، وقَدْ أَمَرَ اللهُ عمومَ المسلِمينَ فَقَالَ: (وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ) [آل عمران: 110]، فَكُلُّنا مَأمُورُونَ بالاقتداءِ بِالرسُولِ فِي الدَّعوةِ والعَمَلِ كَمَا قَالَ رَبُّنا: (قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي) [يوسف: 110].

وَفِي مِثْلِ زَمَنِنَا هَذا تَتَأَكَّدُ الدَّعوَةُ وَتَجِبُ عَلى كُلِّ فَرْدٍ مِنَّا كُلٌّ حَسْبَ قُدْرَتِهِ وَجَهْدِهِ.

قَالَ الإِمَامُ ابنُ القيِّم -رَحِمَهُ اللهُ-: "مَنْ عَلِمَ وَعَمِلَ وعَلَّمَ فَذَاكَ يُدعَى عَظِيمًا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ".

إخراجُ أُنَّاسٍ مِنْ الكُفْرِ إلى الإسْلامِ، ومِنْ مَعَاصٍ وَعَمَى إلى استِقَامَةٍ وهُدَى، خَيرُ الأَعمَالِ وَأَثْقَلُها فِي الميزَانِ كَمَا قَالَ الْمَلِكُ الدَّيَّانُ: (وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنْ الْمُسْلِمِينَ) [فصلت: 33].

قَالَ الشَّيخُ السَّعدِيُّ –رَحِمَهُ اللهُ–: "فَلا أَحدَ أَحسَنَ كَلامًا وَطَرِيقَةً وَحَالَةً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ، بِتَعلِيمِ الجَاهِلِينَ، وَوَعْظِ الغَافِلِينَ، وَمُجَادَلَةِ المبطِلِينَ. وَمَعَ دَعْوَتِهِ لِلْخَلْقِ بَادَرَ بِنَفْسِهِ بِامْتِثَالِ أَمْرِ رَبِّهِ، فَكَانَ مِنْ المنْقَادِينَ لأَمْرِهِ، وَهَذِهِ المرْتَبَةُ تَمَامُهَا لِلصِّدِّيقِينَ، كَمَا أَنَّ مِنْ أَشَرِّ النَّاسِ، قَولاً مَنْ كَانَ مِنْ دُعَاةِ الضَّلالَةِ السَّالِكِينَ سَبِيلَهُ؛ (وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ) [الأنعام: 132]".

كان الحَسَنَ البَصْرِيَّ –رَحِمَهُ اللهُ– إذا تَلا قَولَ اللهِ: (وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ)؛ قَالَ: "هَذا حَبِيبُ اللهِ، هَذا وَلِيُّ اللهِ، هَذا صَفْوَةُ اللهِ، هَذا خِيرَةُ اللهِ، هَذا أَحَبُّ أَهْلِ الأَرْضِ إلى اللهِ، أَجَابَ اللهَ فِي دَعوَتِهِ، وَدَعَا النَّاس وَعَمِلَ صَالِحًا فِي إِجَابَتِهِ، وَقَالَ: إِنَّنِي مِنْ الْمُسْلِمِينَ".